

أصول النقد الموضوعاتي و مفاهيمه

أ. مليكة سعدي
جامعة معسكر

منطلقات النقد الموضوعاتي :

أصبحت للنقد الموضوعاتي في الوقت الحاضر أهمية بالغة، خاصة بعد التراجع الجزئي الذي عرفته الممارسات البنيوية و الشكلانية، لأن النقاد أخذوا يوجهون اهتمامهم لعالم المعنى بعد أن هيمن تحليل الشكل و شكل المضمون.

في الخمسينيات كان النقد الموضوعاتي مدمجا كليا في النقد الجديد، لكن هذا الإدماج خاطئ: فالنقد الجديد تطور أكثر باللسانيات و البنيوية و التحليل النفسي. و قد حافظ النقد الموضوعاتي على استقلاليتة بالنسبة لهذه التيارات الثلاث (Bergez,D,1972,85). و استفاد من الفلسفة الظاهرانية، فقد تأثر " باشلار " بهوسرل و التابعون سيتأثرون بما رلو بونتي .

و الظاهرانية هي الفلسفة التي تعوض الجوهر في الوجود، و لا يعتقد أنه يمكننا فهم الإنسان و العالم إلا عن طريق فعاليتهما. و لذلك فإن المنهج الموضوعاتي يستفيد من الظواهرية بما تحمله من بنية تعددية. فالدراسة الموضوعية تتجه نحو دراسة الظهورات المتعددة للموضوع الواحد من أجل الوصول إلى البنية الشفافة في النهاية، أعني البنية المفهومية (عبد الكريم، ح، 1996، 33).

مر بجوار النقد الموضوعاتي كثير من النقاد الذين اعتبروا رواده و مؤسسيه أمثال: جورج بولي، جون روسيه، جون ستاروبنسكي، جون بيار ريشار، كل المتأثرين بأعمال باشلار و بمؤسسي مدرسة جنيف: ألبرت بيقن و مارسيل ريموند.

كان النقد الموضوعاتي يراقب نفسه و هو يعمل كي يتساءل أحسن عن طريقته الخاصة، أي إن وجهة النظر الموضوعاتية لم يكن لها أية حتمية، إنه لا يجتمع

حول جسم من المبادئ و لكنه يتطور كبحت انطلاقا من حدس مركزي (Bergez, D,)
(1972,87)

و يستفيد النقد الموضوعاتي من الحدس البركسوني و من الصور البدائية عند باشلار. كل ذلك عند مصادفة الرموز في الأعمال المدروسة، و هذا ما يؤكد أن النقد الموضوعاتي لا يحصر نفسه في إطار نظرية هوسرل الصارمة... إنه يفتح جميع الأفاق الممكنة من أجل تفسير الإبداع (لحميداني، ح، 1990، 33)

معنى هذا أن كل ناقد سيستقل عن غيره بما لديه من ثقافة و عمق و اطلاع، و التعاطف مع النص يشكل عاملا مهما يمكّن الناقد الموضوعاتي من الاندماج بالعالم الفني للنص دون الوقوع في الانطباعية و الذاتية المطلقتين. لأن للفكرة الأساسية في النقد الموضوعاتي هي أن الأدب موضوع للتجريب أكثر منه للمعرفة.

النقد الموضوعاتي هو في الحقيقة ابن الرومانسية أيديولوجيا، في حين أن مرجع التيمات في الدراسة الأدبية داخلي. الموضوع أو "التيمة" متشكلة من المعنى أو الإلهام الذي يسمح بمقارنة مؤلفات كتاب مختلفين من المنطلق نفسه (Bergez, D, 1972, 87)، كما يسمح بمقارنة مؤلفات كاتب واحد لاشتراكها في مجموعة من القرائن تشكل الموضوعاتية أو النواة الأصلية أو المركزية التي ينبثق منها العمل الأدبي. و بذلك يدفع نقد الإلهام الموضوعاتي إلى تجانس في قراءة المؤلفات يسعى إلى كشف الارتباط الخفي بين عناصرها المتفرقة.

هذه الطريقة النقدية تريد أن تكون كلية، و هي كذلك في نهايتها مثلما هي في طرقها، لأنها تجربة الوجود في العالم مثلما تتحقق في المؤلف الذي هو لدينا، و ذلك عن طريق الكلية العضوية للنص المدروس الذي يحاول الناقد استيعابه (Bergez, D, 1972, 96).

غير أن النقد الموضوعاتي لا يهتم بالمجال التاريخي الذي أثر في المبدع، بل يدرس النص من خلال علاقاته الداخلية للكشف عن البنية العميقة للخيال المبدع. كما أنه لا يبحث عن الحقيقة و لا عن الشكل و لكنه يبحث عن تكرار معين لموضوع.

و لأن النقد الموضوعاتي يغير مفاهيم و أدوات القياس، فهو يقيم اتصالات جديدة بين حقول إبستمولوجية متفرقة عادة، يخلق حركة جديدة بين المفاهيم، يعيد توزيع الوسائل المعتادة للتحليل الأدبي في فوضى جديدة (Bergez, D, 1972, 98). و في نقطة الانطلاق لهذا التشويش، هناك قناعة بأن المؤلف هو أولا مغامرة روحية، وسيلة و فرصة لتجربة، و ابتعاد عن المفاهيم الشكلانية في الأدب و رفض اعتبار النص شيئا يتعب مضمونه بأبحاث علمية دقيقة.

و لا يخفى علينا أن كثيرا من المخاطر و المزالق تحيط بكل ممارسة نقدية في هذا الاتجاه أولها تحديد المصطلحات و اختيار الأنسب منها خاصة و أنها تختلف من ناقد إلى آخر.

مصطلحات النقد الموضوعاتي و إجراءاته:
(1)-الموضوع:

الموضوع وحدة من وحدات المعنى، و هو وحدة مشهود لها بخصوصيتها عند كاتب ما، كما أنها مشهود لها بأنها تسمح انطلاقا منها و بنوع من التوسع الشبكي أو الخيطي أو المنطقي أو الجدلي ببسط العالم الخاص بهذا الكاتب(عبد الكريم، ح،67،1990). هذا يعني أنه يمكن رد جميع مؤلفات كاتب ما إلى إبداع واحد ظهر فيه الموضوع الرئيس، و أخذ يعلن عن نفسه عبر كامل المؤلف، و يتجاوز به إلى المؤلفات الأخرى، من خلال تكرار نفسه بالتنويعات أو التعديلات المختلفة. هكذا تبدو القراءة الموضوعاتية قراءة شبكية و إشعاعية فانطلاقا من تحليل عنصر معين تفضي هذه القراءة بما تحمله من تقاطعات و تأكيدات و تعددية في الوسائط و كلية في الحضور إلى كافة العناصر الأخرى في نفس الحقل(عبد الكريم، ح،67،1990).

أما الموضوع الرئيس فهو " الموضوع الذي تتكرر مفردات عائلته اللغوية بشكل يفوق العائلات اللغوية الأخرى. هذا على المستوى الشكلي البحث، أما على المستوى البنوي، فإن الموضوع الرئيسي هو الذي يفرز بقية الموضوعات و يولدها بشكل آلي"(عبد الكريم، ح،33،1983-34)

و من هنا تبدو المقاربة الموضوعاتية بحثا عن المعنى في جميع الاتجاهات بنشر القيم المتعددة للموضوع، و مع ذلك تبقى تحمل مزيجا من القدرة على أسر المعنى و خيبة الأمل في ذلك الأسر، لأن المعنى ينفلت على الدوام لانفتاحه الدائم على وجوه أخرى للموضوع.

(2)-الموضوعاتية:

ليس لمصطلح الموضوعاتية حدود واضحة في الساحة النقدية العربية تميزه من الموضوع، و مع ذلك فهي تختلف عنه لأنها تستخلص من ميزات الهندسية لا عبر قيمتها الإحصائية. و تلازم الأنواع الأدبية و الأشكال النقدية مشددة في ذلك على الرسالة أو الفكرة المهيمنة على العمل الأدبي- النثري أو الشعري- لتلعب فيه دور القانون الأساسي المنظم لعضويته(علوش، س،1989)

و الموضوعاتية تختلف عن مفهومي الموضوع و الغرض، فبينما يعبر الموضوع عن فكرة اجتماعية، سياسية، فلسفية أو غيرها و التي تقوم شخصيات فنية بتجسيدها في المجال الأدبي ضمن إطار زمني و مكاني معين، نجد

الموضوعاتية على عكس الموضوع تفتقر إلى هذه الحدود الفاصلة التي تمكن من تصنيفها في مجال معين، ذلك لأن الموضوعاتية هي العنصر الذي ينطلق منه التجسيد في النص الأدبي عبر تعديلاتها أو تنويعاتها الكثيرة، متخذة دور الخلية أو النواة التي تنقسم لتخرج الكائن الحي، ثم تستمر في النمو و التطور صانعة أقسامه و تفاصيله و كيانه(السعيد عبدلي،م،2003، 30)

يتضح مما سبق أن الموضوعاتية أشمل من الموضوع، فهي تحتويه مشتملة على النواة و سلسلة التكرارات و التعديلات التي تطرأ عليها. و هذه النواة يمكن أن تكون مشهدا، حدثا، كلمة، صوتا أو غير ذلك. و انطلاقا منها يمكن تتبع العمل الأدبي بأكمله لمقاربة معناه و أدبيته.

مصطلحات المنهج الموضوعاتي عند ريشار:

- 1- النواة: هي الخلية التي ينبثق عنها العمل الأدبي و يستمر في النمو عبر جميع الاتجاهات بفضل التمثيل. فهي بذلك الوحدة الأساسية في بناء العمل الأدبي.
- 2- التمثيل: يقرر جون بيار ريشار أن قيمة أي موضوع تتحدد من خلال إلحاحه و قدرته على التمثيل، لذلك كان مبدأ الدراسة الموضوعاتية هو مبدأ الاستمرارية، مبدأ التمثيل المستمر دون وجود لأي توقف أو إخفاق في سريان المعنى. فالمعنى يتفكك في اتجاه معنى آخر يتفكك بدوره في اتجاه كل المعاني (عبد الكريم،ح،1996، 70)، أي إن النواة الأصلية تعدل نفسها و تنوع ظهورها بفضل خاصية التمثيل غير المحدودة لصناعة عالم النص بأكمله.
- 3- الإحساس:

الموضوعاتية وحدة حسية، مفهوم يتجسد من خلال أشياء الواقع المحسوس ، أي جزء من العالم الظاهري، و لذلك فالقراءة الموضوعاتية للمؤلفات تنتظم دائما في وظيفة أصناف الإدراك الحسي والعلاقة: زمان، فضاء، حواس (Bergez ,D, 92)

4- القرابة السرية:

يقوم الكشف عن القرابة السرية في النص على اكتشاف " العلاقات التي تربط بين التعديلات التي تلحق بالنواة أو تمفصلاتها و تفرعاتها من خلال موضوع آخر. أن نتقدم شيئا فشيئا حسب قانون التشابه القصدي نحو كل الموضوعات التي ترتبط معه بعلاقة قرابة " (عبد الكريم،ح،62)

أدوات المنهج الموضوعاتي عند ريشار:

1- الحلولية:

تقوم على الاعتراف بوجود علاقة بين النص و الظروف التاريخية التي تم إنتاجه في إطارها، و مع هذا يجب تجنب إغراء الإحالة على العالم الخارجي بقسميه:

المجتمع و المؤلف، و يعتبر ذلك أول خطوة ضرورية يخطوها الناقد نحو تحقيق القراءة الموضوعاتية للنص الأدبي (السعيد عبدلي، م، 2003، 67). أي إن الناقد الأدبي ينطلق من النص الإبداعي و يعود إليه، فهو يحل فيه و يعيد بناءه حتى يستقر على النحو الذي يرضيه بتحديد موضوعاتيته و تعديلاتها.

مع ذلك يبقى هناك اتجاهان، فالنقد الموضوعاتي الذي يخلص لرأي هوسرل، يبقى مرتبطاً بالعمل الأدبي محاولاً إدراك التجربة الماثلة فيه. أما النقد الموضوعاتي الذي يستفيد من البعد الميتافيزيقي الذي أضافه هايدكر و سارتر عند تأكيدهما على أهمية و راديكالية الوعي، فيستطيع أن يتحرر من النص أي من التجربة الإبداعية وحدها ليحول في عالم خارج النص (لحميداني، ح، 1990، 32). معنى هذا أنه حتى المقاربة الموضوعاتية تنقسم إلى محاثة و سياقية حسب الممارسة النقدية التطبيقية.

2- حرية المدخل:

في النقد الموضوعاتي، ليس هناك بداية يلتزم بها الناقد، و إنما هو حر في اختيار البداية أي النقطة التي يدخل منها إلى نصه. فلا وجود في القراءة الموضوعاتية لنقطة بدء و نقطة وصول، فالمدخل إلى حقل القراءة مدخل حر (عبد الكريم، ح، 1996، 186). و بذلك يمكن القول إن مبدأ الحرية الذي يتمتع به ممارس النقد الموضوعاتي هو الشيء الوحيد الثابت في هذا المنهج.

3- القراءة المجرية:

هي إجراء من الإجراءات التي يقوم عليها المنهج الموضوعاتي عند ريشار، و قد جعله عنواناً لكتابه الأخير (قراءات مجرية)، و هو يعني "قيام التحليل الأدبي بالتركيز على جزء أو أجزاء صغيرة في النص الأدبي، قد يكون هذا الجزء نقطة، فاصلة، حرفاً، كلمة، جملة، فقرة، مشهداً، حدثاً أو غير ذلك" (السعيد عبدلي، م، 2003، 78).

و ينتقل ريشار على محورين فمن المقولات الكبرى إلى جزئيات المعنى، و العكس صحيح إنه يلتقط جزئيات المعنى منطلقاً من المقولات الكبرى، و يصل إلى المقولات الكبرى عبر جزئيات المعنى (عبد الكريم، ح، 1996، 48).

4- التكرار:

اعتبار الوحدات النصية التي يتم تواترها في النص ذات أهمية كبيرة و دور فعال لتوجيه الدارس نحو موضوعاتية النص، مما يساعد على تتبع تعديلاتها المنتشرة فيه. فهذه الوحدات لا تتكرر بعينها، و إنما بتفاصيل أخرى مشابهة لها و معدلة عنها.

إجراءات المنهج الموضوعاتي عند "ويبر":

حقق المنهج الموضوعاتي على يد "جون بول ويبر" تطورا مهما بسبب عنايته بتطوير أدواته النقدية. و يختلف مفهوم الموضوعاتية عند ويبر عنها عند "ريشار" الذي انطلق من الفلسفة الظاهرانية، أما ويبر فعلى أساس فكرته حول الوحدة (السعيد عبلي، م، 2003، 98). وقد جاء "ويبر" بمفهوم التعديلات، فالنص عنده يتشكل و ينبني جماليا بفضل التعديلات التي تدخلها الموضوعاتية الأساسية على نفسها، فتبدو هذه التعديلات مختلفة عن بعضها لكنها متقاربة في جوهرها، و يذكرنا هذا بفكرة القرابة السرية التي تحدث عنها "ريشار". يجعل "ويبر" التعديلات في أربع مستويات يطلق على كل مستوى مصطلح درجة و هي كالآتي:

- 1- مستوى التواتر الإحصائي: تواتر كلمة، مجموعة سيميائية، آفاق دلالية. هذا على مستوى الدرجة صفر للموضوعاتية.
 - 2- مستوى الصور و الاستعارات و الالتقاءات غير المتوقعة أو الخاصة للكلمات حيث تتجلى الذكريات الموضوعاتية و هذا هو مستوى الدرجة الأولى.
 - 3- مستوى الحالات الجزئية و يتم الكشف عنها بطريقة مباشرة و هو مستوى الدرجة الثانية للتعديلات الموضوعاتية.
 - 4- المستويات الشاملة: مستوى الشخصيات، مستوى الأحداث الكلية أو الألغاز و هي الدرجة الثالثة للتعديلات (Weber, j-p, 1969, 141-142)
- و اقتصرنا في الحديث عن النقد الموضوعاتي على "ريشار" و "ويبر" لأن طريقة كل منهما هي الأبسط في الدراسات الموضوعاتية التطبيقية و جرى اتباعهما في الرسائل الأكاديمية.

المراجع:

- السعيد عبلي، محمد، 2003، البنية الموضوعاتية في عوالم نجمة لكاتب ياسين، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر.
- علوش، سعيد، 1989، النقد الموضوعاتي، ط1، الرباط، دار بابل.
- عبد الكريم، حسن، 1983، الموضوعاتية البنوية، دراسة في شعر السياب، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية.
- عبد الكريم، حسن، 1996، المنهج الموضوعي، ط2، دمشق، شراع للدراسات و النشر.
- لحميداني، حميد، 1990، المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، أصوله و اتجاهاته، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 04.
- Bergez, Daniel, 1972, introduction au méthodes critiques, Paris, société d'édition d'enseignement supérieur .

Weber, jan-paul, 1969, Stendhal :les structures thématiques de l'œuvre et du destin, Paris, -
.société d'édition d'enseignement supérieur